مفهوم الشعر عند حازم القرطاجي
من خلال كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء

الأستاذ/سالم سعدون
المركز الجامعي –البويرة–

المؤلف وكتابه المنهاج:

لم يكن الغرض من هذا التمهيد لهذه الورقة التعريف بالمؤلف والترجمة له بالمعنى المألوف في ترجمة المؤلفين التي تعنى بكل ما يتصل بحيواتهم، وتتبع كل شاردة وواردة فيها– مع العلم أن هذا الجانب مهم في إضاءة بعض جوانبهم العلمية واتجاهاتهم الفكرية– فلم اقصد ذلك من خلال هذه الدراسة بقدر ما قصدت الكشف عن جانب من فكر القرطاجني المتمثل في مفهومه للشعر. لذا سأركز على الجانب الذي يساعد على فهم النظرة النقدية لديه. ولمعرفة هذه النظرية النقدية لابد من الوقوف عند أهم محطات حياته المؤثرة والموجهة لفكره، والمصادر التي ساهمت في تكوين مفهومه للشعر.

المولد والنشأة

تعد قرطاجنة من أقدم ثغور الأندلس الشرقية، وتمتاز بمناعة موقعها البري والبحري، وهي تقع جنوب مرسية على شاطئ البحر المتوسط، وظلت تتمتع بأهمية تجارية وبحرية في ظل الوجود الإسلامي بإسبانيا، وكانت مركزًا من مراكز الجهاد والغزو، تخرج منها الحملات الحربية، وبقيت تحت حكم المسلمين حتى سقطت نهائيًا« 675هـ = 1276م»

ولأن أكثر من مدينة سميت بقرطاجنة، فقد حرص العلماء على تسمية هذه المدينة بقرطاجنة الأندلس[1]، تمييزا عن أختها التي توجد بتونس.

في هذه المدينة الأندلسية ولد أبو الحسن بن محمد بن الحسن بن حازم الأنصاري المعروف ب: "حازم القرطاجني" سنة «608هـ» وإليها نسب، يقول عنه المقري في كتابه "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض"«منسوب إلى قرطاجنة من سواحل كورة تدمير ،من شرقي الأندلس وهو خاتمة شعراء الأندلس الفحول، مع تقدمه في معرفة لسان العرب وأخبارها، ونزل افريقية بعد خروجه من بلده فطار بها صيت، وعمر إلى أن مات في تونس سنة 684هـ». ونشأ في أسرة ذات علم ودين، فأبوه كان فقيهًا عالمًا، تولى قضاء قرطاجنة لسنوات طويلة، «وقد نشأ أبو الحسن في وسط ممتاز ذي يسار. وقضى طفولته وشبابه في عيش رغد»[2] وقد عني الوالد بولده فوجهه إلى طلب العلم مبكرا، فبعد أن حفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، تردد على حلقات العلماء في مختلف المدن العلمية المشهورة في الأندلس، التي نجت من غزو النصارى، وتتلمذ على عدد كبير من العلماء، ولزم "أبا علي الشلوبين" شيخ علماء العربية في عصره والذي عرف بالانتساب إليه« ومن المقدر أن هذا الإمام لاحظ في مريده شيئا من الاستعداد للأخذ بالعلوم العقلية .فلم يجعل منه راوية كابن الأبار، أو لغويا نحويا فقط. فيقتصر على تدريس كتاب سيبويه له. بل حمله على الأخذ بالعلوم الحكمية الهيلينية، ووجهه إلى دراسة المنطق والخطابة والشعر»[3] لما كانت فيه نزعة إلى الفلسفة أخذ في قراءة كتاب الشعر لأرسطو من خلال ترجماته الكثيرة إضافة إلى مصنفات ابن رشد وغيره من فلاسفة العرب. وكان هذا الاحتكاك بشيخه الشلوبين اللبنة الأولى في بداية تكوين الفكر النقدي لديه المتأثر بالفكر اليوناني، وهو التأثير الذي اختلف الدارسون حول حدوثه. فسعد مصلوح ينفي وقوع القرطاجني تحت

---

1 - يحرص المؤرخون بذكرها بقرطاجنة الأندلس تمييزا لها عن مثيلاتها في مواضع أخرى. لان هذا الاسم يوجد في ثلاثة مواضع. احدها بالأندلس عند جبل طارق، وهي مدينة غير مسكونة وبها آثار كثيرة بقرطاجنة الجزيرة. والثانية قرطاجنة الخلفاء بالأندلس من كورة تدمير وهي المدينة التي ينسب إليها أبو الحسن، ومدينة قديمة أولية بها ميناء ترسى فيها المراكب، وهي كثيرة الخصب والرخاء. والثالثة هي قرطاجنة افريقية وهي أجلها وأشهرها.

2 - محمد الحبيب بن خوجة.مقدمة كتاب المنهاج، دار الكتب الشرقية، د ت، ص53.

3 - المرجع نفسه، ص54.

تأثير الفكر اليوناني« إن حازما أندلسي من حيث مولده وتونسي من حيث تكوينه الثقافي وشخصيته العلمية»[1]. وهذا الرأي رغم انه لا يقدم الدليل، ما عدا ما يفهم من كون أن القرطاجني عاش فترة طويلة بتونس يفترض انه تأثر بالوافد المشرقي أكثر من تأثره بالوافد الأندلسي، متناسيا أن حتى الفكر النقدي المشرقي لم يكن عن منأى عن التأثير اليوناني، وقدامة بن جعفر الذي عاش في القرن الخامس للهجرة ابرز مثال على اطلاع المشارقة على كتاب الشعر لأرسطو، إضافة أن الحركة الثقافية على عهد القرطاجني قامت على أكتاف العلماء الأندلسيين الذين هاجروا إليها. ويكفي أن نعود إلى الكتب التي تتبعت حركة هجرة هؤلاء العلماء لنعرف مدى كثرة هؤلاء الذين استقطبتهم تونس في تلك الفترة لما وجدوه من رعاية لدى حاكمها.

الهجرة إلى المغرب

وبعد أن سقطت قرطاجنة وغيرها من المدن الأندلسية، غادر عدد كبير من العلماء والأدباء الأندلس، ووجهوا شطرهم إما إلى بلاد المشرق الإسلامي أو إلى بلاد المغرب، وكان حازم القرطاجني ممن استقر به المقام في "مراكش" والتحق بحاشية الخليفة الموحدي أبي محمد عبد الواحد الملقب بالرشيد، وكان بلاطه عامرا بالأدباء والشعراء و«يبدو أن حازما لم يحسن الاختيار حين قصد إلى مراكش متخذا منها في مهجره دار إقامة. فقد كانت الحياة بها مضطربة أي اضطراب. وهي لا تفضل من أي وجه الأندلس،لما كان ينتابها من حوادث وفتن، هي مدعاة في كل يوم للفوضى وألوان الفزع»[2]، ثم ما لبث أن ترك مراكش إلى تونس، واتصل بسلطانها "أبي زكريا الحفصي"[3]، فعرف له فضله وعلمه، فقربه منه، وعينه كاتبا في ديوانه. ويذكر المقري اتصاله بهذين الحاكمين ومدحه لهما وله في الرشيد أمداح كثيرة، انشدها في الإشادة، ومدح الأمير أبا زكريا صاحب إفريقيا، وولده أبا عبد الله المستنصر، وله ألف المقصورة المشهورة، وقصر محاسنها على مدحه، ومدح أخاه أبا يحيى، ومقصورته تدل على اطلاعه الواسع.

---

1 – سعد مصلوح، حازم القرطاجني ونظرية المحاكاة والتخييل، دار عالم الكتب، ص21.

2 – الحبيب بن الخوجة، المرجع نفسه، ص 55.

3 – يعد أبو زكريا الحفصي اقوي الأمراء نفوذا وسلطانا في شمالي إفريقيا. ولما توفي سنة 647. ولي مكانه ابنه أبو عبد الله محمد وتلقب بالمستنصر.

وكان أبو زكريا الحفصي محبًا للعلم مقدرًا للعلماء، يدعوهم إلى دولته للإقامة بها ويحيطهم برعايته؛ فقدم إليه كثير من العلماء والشعراء الأندلسيين من أمثال ابن الأبار، وابن سيد الناس، وابن عصفور النحوي المعروف، وابن الرومية عالم النبات، وابن سعيد الأندلسي وغيرهم.

وبلغ من حب أبي زكريا الحفصي للأدباء والشعراء أن جعل لهم بيتًا يقيمون به، ويجدون فيه كل وسائل الراحة، ولما توفي أبو زكريا الحفصي خلفه ابنه "أبو عبد الله محمد المستنصر" وكان على شاكلة أبيه في احترام العلماء والأدباء وتقديرهم، ولهذا وجد حازم القرطاجني في ظل حكمه كل عناية وتقدير، وكان المستنصر يثق به وبذوقه الأدبي، فكان يدفع إليه ببعض المؤلفات ليرى فيها رأيه ويقرر مستواها العلمي، وفي« هذا المحيط الثقافي كان استقرار حازم. وفيه بذل الجهود من اجل تكوين نخبة ممتازة من العلماء والأدباء. وقد كان لذلك كبير الأثر في نشر المناهج الأندلسية، فان المهاجرين لم يفتؤوا في بلاد المغرب عامتها يذكرون الحياة الفكرية ويبعثون النشاط العلمي والأدبي بها،بتلقين الناشئين والمتخرجين طرقهم وأساليبهم، وحمل العلماء والأدباء على الأخذ بمذاهبهم واستملاح أذواقهم»[1].

مصادر ثقافته:

تنوعت مصادر التفكير عند القرطاجني إلى درجة تضاربت الآراء حول المصدر الأساس الذي صدر عنه تفكيره، وتباينت كذلك حول مدى تأثره بالفكر الهيليني، فهناك من يحاول التقليل منه إن لم ينفه كلية« يبدو أن عوامل التأثر بالمشرق وهي ترجع في جوهرها إلى وحدة اللغة وبالتالي وحدة التكوين العقلي والوجداني قد تغلبت على غيرها من عوامل التكوين الذاتي كعامل البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية والجنس والزمن والوراثة. ومن هنا كان الأندلسيون يرون في المشرق مثلا أعلى جديرا بالاحتذاء»[2]. وهذا الرأي الذي يغلب فيه التأثير المشرقي لا يصمد كثيرا أمام كتابات القرطاجني نفسه التي يبدو واضحا من خلالها استيعابه لنظرية الشعر عند اليونان كما جاء بها أرسطو في كتابه (فن الشعر)، ويبدو انه تأثر

---

1 – الحبيب بن الخوجة، المرجع نفسه، ص 68.

2 – منصور محمد عبد الرحمن، مصادر التفكير النقدي والبلاغي عند حازم القرطاجني، رسالة دكتوراه(مخطوطة)، دار العلوم 1972،ص 4.

به من خلال شروح الفلاسفة[1]. ولقد سبقه غيره بالاتصال بالفكر الأرسطي، و«حين اتصل فكر أرسطو بالبيان العربي كان ذلك من خلال عقلية قدامة بن جعفر[2] التي لم يكن يعنيها كثيرا الجانب الفني والوجداني قدر ما يعنيها الجانب العقلي وما يتصل به من التقسيم والتفريع. ولهذا كان من الصعب تقدير تأثير أرسطو في البيان العربي»[3]. ولما جاء حازم اتضحت من خلال دراساته تأثير الهيلينية في النقد العربي،حيث ربط الشعر بالفلسفة، واتضحت عنده نظرية المحاكاة التي بلغت الذروة في التفكير النقدي، وفي عهده بلغ النقد العربي مكانة لم يصلها من قبل، ووضع بذلك الحد للتشكيك في تأثير الفكر اليوناني –ممثلا في كتابات أرسطو–على صناعة النقد عند العرب. وبذلك تلاقحا المصدران، المشرقي واليوناني، لينتجا هذا الفكر المتميز لدى القرطاجني. وضمن خلاصة تفكيره النقدي والبلاغي في كتابه المشهور«(منهاج البلغاء وسراج الأدباء»[4]، وهو الكتاب الذي يظهر فيه تأثره بأرسطو.

كتاب المنهاج:

أن كتاب المنهاج واحد من أهم كتب التراث العربي عامة، وكتب التراث الأندلسي خاصة. ولكنه مع هذه الأهمية بقي مجهولا على مدى العصور. والنسخة التي وصلت إلينا قد نشرت من المخطوطة التي عثر عليها في المكتبة الصادقية بتونس، وقام بتحقيق الكتاب وتحليله محمد الحبيب ابن الخوجة، والكتاب«على طريقة خاصة جعلت الاهتمام به قليلا بالقياس إلى آثار المؤلف الأخرى كالمقصورة،و كادت نسخه تندثر لولا واحدة مخرومة

---

1 – يبدو ذلك من خلال نقوله عن الفارابي وابن سينا وابن رشد، وإن لم يذكر هذا الأخير صراحة. ولم ترد الإشارة إلى أرسطو إلا مرتين في كتاب المنهاج. مما يدل أنه تأثر به من خلال الشروح وليس بطريقة مباشرة.

2 – يعتبر قدامة بن جعفر –337هـ – أهم ناقد وقف عنده الدارسون في إشكال التأثير اليوناني في النقد العربي. حتى عده البعض يمثل قطيعة مع التفكير النقدي الموجود في زمانه، كما عد كتابه (نقد الشعر) أحسن مثال للتأثير اليوناني.

3 – منصور محمد عبد الرحمن. المرجع نفسه، ص 9.

4 – كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء للناقد الأندلسي حازم القرطاجني. حققه وقدم له محمد الحبيب بن خوجة. وهو موضوع أطروحة الدكتوراه ناقشها بجامعة السربون بباريس بإشراف المستشرق ريجيس بلاشير.

بتراء تنقذ الكثير على كل حال»[1]، فسد نشره ثغرة واسعة في التراث الأندلسي وصار للأندلس ذكر في هذا الباب كان مطموسا. والنسخة الموجودة قد سقط منها القسم الأول بكامله« القسم الأول المذكور مفقود تماما لا نعرف طريق التوصل إليه»[2]. وقد استنتج الباحثون مما نقله القدماء من العلماء من القسم الأول المفقود، أنه كان يتناول: الألفاظ.

أما الأقسام الثلاثة المتبقية فهي: في القسم الثاني بحث فيه المعاني وما تعرف به أحوالها، وفي الثالث فيه المباني، بينما تناول في الرابع الأسلوب.

وتميز القرطاجني بطريقة خاصة به في تقسيم كتابه المنهاج،لم تألفها الدراسات السابقة،كما عجزت الدراسات اللاحقة من تمثلها والتأليف على منوالها،لتعقيد منهجه الذي يمكن أن يكون احد الأسباب التي ساهمت في نفور الدارسين والقراء منه.

تذكرنا موضوعات كتاب المنهاج لحازم بمؤلفات من سبقه من النقاد والبلاغيين أمثال عبد القاهر الجرجاني. ولكن هناك أشياء تميز هذا الكتاب عن غيره من المؤلفات النقدية. فأول شيء نلحظه عند تصفح كتاب المنهاج وقراءته هو الطريقة الترتيبية التي جرى عليها القرطاجني فيه. فالأقسام الثلاثة الباقية من الكتاب تتفق تماما في عدد الأبواب – المناهج التي تحوي العديد من الفصول. والنظريات أو القواعد البلاغية تأتي غالبا في نهاية الأبواب، ويعنون لها حازم بمأم. ونراه يخالف بقية المؤلفين في تسمية الفصول؛ فهو لا يسميها مطلبا ولا مقصدا، بل يطلق عليها مصطلحا خاصا به – وهو المعلم أو المعرف. أما الفقرات المتشعبة من الفصول، فإنه لا يرقمها تسهيلا على القارئ، لأن ذلك لم يكن معتادا في عصره، ولكنه ميز بين فقرة وأخرى بتسميتها إضاءة وتنويرا على التناوب. وهذا الترتيب يدلنا على الاتجاه المنطقي الذي كان يسير عليه حازم. وهو قد أضاف إلى هذا الاتجاه ثقافته العربية الواسعة – تنطق بذلك الشواهد المتنوعة الذي طرز بها كتابه. فهو يستدل أحيانا بالاستعمالات القرآنية وأحيانا أخرى بأشعار القدامى والمحدثين من الشعراء. ولا نجد في كتابه أي نص للكتاب أمثال ابن المقفع وابن قتيبة، وذلك أن المنهاج كتاب يهتم بنقد الشعر بالدرجة الأولى.

---

1 – محمد رضوان الداية تاريخ النقد الأندلسي، مؤسسة الرسالة، ط2، ص488.

2 – الحبيب ابن الخوجة، المرجع السابق، ص 94.

وإلى جانب الطريقة التي اتبعها القرطاجني في تقسيم الكتاب، فإننا نجد فيه جوانب أخرى من التعقد والغموض، يرجع إلى لغته المستعصية التي ملؤها المصطلحات المنطقية والفلسفية التي لا يعرفها إلا من غاص في أعماق تلك العلوم. وهو، كذلك، يوظف بعض المصطلحات البلاغية على غير ما عهد عند عامة البلاغيين، كما أنه أوجد بعض المصطلحات الخاصة به.

ولم يمثل كتاب المنهاج مجرد سرد لمعلومات السابقين، بل نجد صاحبه حريصا على التعمق في أثناء بحث مسائل الكتاب، فهو إنما يعيد ما بناه السابقون ويقوي دعائمه، مما أكسبه الشهرة الواسعة في عصره وثناء المعاصرين عليه.

ويجدر بنا أن نذكر أنه أخلى القواعد التي يبحثها من الشواهد والأمثال في غالب الأمر. مما زاد طريقته المنطقية غموضا، ولكن، مهما تكن صعوبة المنهاج فإنه استطاع في القرن السابع الهجري أن يكمل بوضوح سائر كتب النقد والبلاغة المعروفة في ذلك العصر.

مصادر ثقافته

نلحظ بين النقاد القدامى من اعتنى بكتاب الشعر لأرسطو – مثل قدامة وابن رشيق، كما نلحظ منهم قلة قليلة قصدت إلى الجمع بين الطريقتين الهيلينية والعربية والمقارنة بينهما، مثل حازم القرطاجني. فكتاب الشعر لأرسطو قد أثر تأثيرا عميقا في عمل صاحب المنهاج، حيث جهد أن ينتفع بهذا الكتاب – أو بالصور التي عرفها منه – أعظم انتفاع.

والمثال على ذلك ما نجده من كلام حازم في القسم الثاني من كتابه "عما به تتقوَم صنعتا الشعر والخطابة من التخييل والإقناع"، وقد أكثر فيه القرطاجني الاهتمام بالصناعة الشعرية، فهو يعرف الشعر بأنه "كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكرّه إليها ما قصد تكريهه لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيئة تأليف الكلام أو قوة صدقه أو قوة شهرته أو بمجموع ذلك". وهو ينقل في هذا الفصل كثيرا عن الفارابي وابن سينا، ويزيد على ما ينقله محاولة جديدة لتحديد معنى التخييل وتفصيل أنواعه ووصف عمل الشاعر فيه. وفي ذلك كله نجد التأثير اليوناني واضحا، بل نجد كلام حازم استمرارا لكلام ابن سينا، لولا أن هذا فيلسوف يكتب في الشعر، وذاك شاعر يعتمد على الفلسفة. وكما

يصرح حازم بذكر ابن سينا والفارابي يشير إلى أرسطوطاليس مؤكدا أن القوانين التي وضعها غير كافية لأن تطبق على أشعار العرب.

وتقسيم حازم للشعر إلى طريقتين – طريقة الجد وطريقة الهزل يوحي باستفادته من أرسطو. وكان متى مترجم كتاب الشعر قد أشاع ترجمة "الكوميديا والتراجيديا" بالمدح والهجاء، وأوقع ذلك في الخطأ من جاء بعده. فنرى ابن سينا يعبر عن هاتين الطريقتين بـ"الطراغوذيا والقوموذيا"، وابن رشد يستبقيهما. "ويبدو أن كلمتي "المديح والهجاء" قد أوقعتا قدامة أيضا في شيء من الاضطراب، إذ ترك ذكر الفخر في فنون الشعر، وعد الرثاء لونا من المديح." وحرص حازم على أن ينتفع من الشعر اليوناني في هذا الباب، فاعتمد على ما لاحظه أرسطو من أن الشعراء الأخيار مالوا إلى محاكاة الفضائل، بينما مال الأرذال إلى محاكاة الرذائل، وما فهمه من تلخيص ابن سينا أن التراجيديا محاكاة ينحى بها منحى الجد والكوميديا محاكاة ينحى بها منحى الهزأ والاستخفاف، فجعل ذلك عمدة في تقسيم الشعر العربي إلى طريقتين – الجد والهزل. واستطاع حازم بهذا أن يطبق بإخلاص تقسيم أرسطو هذا للشعر اليوناني على الشعر العربي الغنائي.

وفي هذه القضية يعد القرطاجني في كتاب المنهاج أحسن من يمثل ملتقى التيارين العربي واليوناني، حيث أحسن الاستفادة من الثقافة اليونانية ومزجها بالعربية، مع استيعاب للتيار اليوناني لم يتأت لمن سبقه من النقاد. وسنحاول أن نبرز جانبا من نظريته لمفهوم للشعر من خلال مجموعة من المفاهيم. وهذه المفاهيم على كثرتها، تشكل وحدة متكاملة تشرح لنا في النهاية النظرية النقدية عند حازم القرطاجني. ونظرا لكثرة مفاهيمه النقدية لمفهوم الشعر العربي، اقتصرت في هذا العمل على أربعة منها. لم يكن الانتقاء اعتباطيا لا يبرره الهدف من هذا العمل، بل انتقاء واعي يستجيب لفهم الخلفية الفكرية والنقدية التي انطلق منها القرطاجني ومدى استيعابه لها. وما دام أن نظريته النقدية تقوم على النص الشعري، فلا بد أن نتوقف عند مفهومه لماهية هذا النص. ولما كان هذا النص أيضا له أقسامه وطرائق متعددة في القول فيه، اعتنى حازم بأقسام النص الشعري من حيث تكون ملائمة أو منافرة للنفوس، وأدى به هذا المنطلق إلى تقسيم طرق الشعر إلى جد وهزل. ومن هذه الطرق الشعرية تتفرع مختلف الأغراض وهو المفهوم الآخر الذي توقف عنده القرطاجني. وإذا كانت هذه المفاهيم خاصة بالنص الشعري، فإن المفهوم الآخر يلمس صاحب النص، من خلال مفهوم المفاضلة بين الشعراء.

I – ماهية الشعر

أن كتاب المنهاج تنصب مباحثه حول نقد الشعر، حيث يمتد هذا الموضوع على جميع فصول الكتاب. لذا نلاحظ أن المفهوم الكلي للشعر متفرق عبر الكتاب، في أثناء مناقشته للمسائل النقدية المختلفة. ومن هنا لا تكتمل النظرة النقدية الكلية للنظرية النقدية عند حازم القرطاجني إلا من خلال تتبع أشتات هذه النظرية داخل الكتاب.

لقد اختلف النقاد في تحديد ماهية الشعر، لأن «تحديد معنى الشعر تحديدا منضبطا أمر بالغ الصعوبة، لأنه يتعلق بفن أنساني متجدد يعبر عن تجارب فردية متميزة بطبيعتها، ويخضع في نفس الوقت للمذاهب الفكرية، والتيارات الاجتماعية التي يصدر عنها، ومن ثم نجد في التراث النقدي العديد من التعريفات التي تحاول بيان ماهية الشعر وحصر خصائصه، والتفريق بينه وبين النثر»[1]. ولعل من أقدم التعريفات التي قال بها ابن سلام الجمحي حين أعطى للشعر مفهوما جديدا خطا به خطوة في طريق التنظير « وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم ،كسائر أصناف العلم والصناعات:منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما يثقفه اللسان»[2]. ومن هذه اللحظة لم يتوقف النقاد العرب القدماء عن البحث في تحديد ماهية الشعر، وما دام انه صناعة كما عرفه ابن سلام، فلا بد أن تكون له قواعد وتقاليد فنية تراعى في هذه الصناعة. ومن هنا بدا البحث في أي الجوانب التي تتمثل فيها التقاليد التي تعرف من خلالها ماهية الشعر. وتشعبت تعريفاتهم بين من يحصره في الجوانب الشكلية (اللفظ) وبين من يحصره في الجوانب المضمونية (المعنى) وبين من يذهب مذهبا ثالثا يجمع بين المذهبين تمثل هذا الاتجاه في نظرية النظم التي اشتهر بها عبد القاهر الجرجاني. ولعل أحسن من صاغ مفهوما شاملا لماهية الشعر هو قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر)، وهو التعريف الذي سعى من خلاله إلى تعريف ماهية الشعر« إن أول ما يحتاج إليه في شرح هذا الأمر معرفة حد الشعر الجائز عما ليس بشعر، وليس يوجد في العبارة عن ذلك ابلغ ولا أوجز مع تمام الدلالة من أن يقال فيه: انه قول موزون مقفى يدل على معنى»[3].

---

1 – عبد الفتاح عثمان، نظرية الشعر في النقد العربي، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، 1977، ص 02.

2 – ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء،ج1، تح: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهر، د ت، ص 5.

3 – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الازهرية، القاهرة، ص64.

قد عرّف حازم الشعر بأنه « كلام موزون مقفّى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكرّه إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيأة تأليف الكلام، أو قوة صدقه أو قوة شهرته، أو بمجموع ذلك. وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب.فان الاستغراب و التعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوى انفعالها وتأثرها»[1] فهو يلتقي مع سابقيه في تعريف الشعر من حيث الشكل، بأن الشعر "كلام موزون مقفى"، لكنه يخالفهم في هذا التعريف من حيث التركيز على ناحية التأثير، أي حمل الشعر على التحبيب و التنفير.

وأورد لنا العناصر التي تكفل جودة الشعر، « فأفضل الشعر ما حسنت محاكاته وهيأته، وقويت شهرته أو صدقه، أو خفي كذبه، وقامت غرابته. وإن كان قد يعد حذقا للشاعر اقتداره على ترويج الكذب وتمويهه على النفس واعجالها إلى التأثر له قبل،بإعمالها الروية في ما هو عليه. فهذا يرجع إلى الشاعر وشدة تحيله في إيقاع الدلسة للنفس في الكلام. فإما أن يكون ذلك شيئا يرجع إلى ذات الكلام فلا» [2]. وأردأ الشعر ما كان ضد ذلك. وهذا القسم جدير بألا يسمى شعرا، وإن كان موزونا مقفى« وأردأ الشعر ما كان قبيح المحاكاة والهيئة، واضح الكذب ،خليا من الغرابة ، وما أجدر ما كان بهذه الصفة ألا يسمى شعرا وإن كان موزونا مقفى، إذ المقصود بالشعر معدوم منه...» [3] .

نلاحظ من خلال ما سبق تركيز حازم على تعريف الشعر من زاوية تأثيره وصدقه، وبذلك يخالف الرأي النقدي القديم الذي يعد (أعذب الشعر أكذبه).

وأما من حيث الإبداع، فنظم الشعر لا يتأتى إلا بشروط تتوفر عند الشاعر والتي يسميها: بالمهيئات والأدوات والبواعث. «الشعر لا يتأتى نظمه على أكمل ما يمكن فيه إلا بحصول ثلاثة أشياء، وهي: المهيئات والأدوات والبواعث، وكانت هذه المهيئات تحصل من جهتين:

- النشء في بقعة معتدلة الهواء ،حسنة الوضع، طيبة المطاعم، أنيقة المناظر، ممتعة من كل ما للأغراض الإنسانية به علقة.

- والترعرع بين الفصحاء الألسنة المستعملين للأناشيد المقيمين للأوزان»[4].

---

1 - المنهاج، ص 71.

2 - المنهاج، ص 71.

3 - المنهاج، ص 72.

4 - المنهاج، ص 40.

في هذا المجال يعد حازم قريبا من النقاد والفلاسفة الذين سبقوه إلى تعريف الشعر. فهو قد استفاد من النقاد الفلاسفة في تعريف الشعر وتعلقه بحركات النفس، كما أخذ عن الجاحظ القول بأثر البيئة والعرق، ووقف في صف النقاد الذين قالوا بحاجة الشاعر إلى الثقافة (العلوم).

وبجانب هذه العوامل، لا بد لكمال إبداع الشعر من توفر قوى داخلية، بحيث« لا يكمل لشاعر قول على الوجه المختار إلا بان تكون له قوة حافظة وقوة مائزة وقوة صانعة»[1].

– القوة الحافظة، وهي أن تكون خيالات الفكر منتظمة متمايزة، تلبس الموضوع صورة جلية حقيقية، مع تجنب جميع ما يعكرها ويكسبها الغموض وعدم الانتظام. « القوة الحافظة هي أن تكون خيالات الفكر منتظمة، ممتازا بعضها عن بعض، محفوظا كلها في نصابه» [2].

– القوة المائزة هي التي يميز بها الشاعر ما يلائم موضوعه ونظمه وأسلوبه وغرضه مما لا يلائم ذلك. «والقوة المائزة هي التي بها يميز الإنسان ما يلائم الموضع والنظم والأسلوب والغرض مما لا يلائم ذلك،وما يصح مما لا يصح»[3].

– القوة الصانعة ،يقصد بها القوة المنظمة للعملية الإبداعية. « والقوى الصانعة هي القوى التي تتولى العمل في ضم بعض أجزاء الألفاظ والمعاني والتركيبات النظمية والمذاهب الأسلوبية إلى بعض والتدرج من بعضها إلى بعض،و بالجملة التي تتولى جميع ما تلتئم به كليات هذه الصناعة»[4].

وهي صفات لا يعتبرها القرطاجني مكتسبة ،و إنما تدخل في طبع الشاعر. و(هذه القوى التي هي الحافظة والمميزة والملاحظة والصانعة وما جرى مجراها، في احتياج الشاعر أن تكون موجودة في طبعه، هي المعبر عنها بالطبع الجيد في هذه الصناعة»[5]. باجتماع هذه القوى جميعها في الشاعر، سمي ذلك بالطبع الجيد في صناعة الشعر،« فهو قد انتقى من

---

1 – المنهاج، ص 42.

2 – المنهاج، ص 42.

3 – المنهاج، ص 43.

4 – المنهاج، ص 43.

5 – المنهاج. ص 43.

نقاد الفلاسفة تعريفه لماهية الشعر وعلاقته بحركات النفس، ومن الجاحظ القول بأثر البيئة والعرق، ووقف مع جميع النقاد القائلين بحاجة الشاعر إلى الثقافة "العلوم"»[1].

II - تقسيم الشعر

تنقسم طرق الشعر عند القرطاجني من حيث تكون ملائمة للنفوس ومنافرة لها إلى (جد وهزل). إن التأثير الأرسطي على نقد حازم هو الذي اثر في تقسيمه طرق الشعر إلى جدي وهزلي، وسنتناول مفهوم حازم لهاتين الطريقتين وما تختص به كل منهما.

ولقد تناول النقاد العرب القدماء من غير حازم، الذين تأثروا بالمنطق الأرسطي تقسيم الشعر إلى الجد والهزل انطلاقا من مفهوم أرسطو للكوميديا والتراجيديا. واعتمد في تقسيم الشعر على ما يسميه المقاصد والمنازع الشعرية، وهما مفهومان نقديان عرفا في النقد العربي القديم، وعبرا عنهما بطرق أخرى«إذا عدنا إلى النقد العربي، وجدنا مفهومي المقصدية والمنزع مشارا إليهما بطرق تتفاوت ووضوحا وخفوتا لدى النقاد العرب، وان كانا لا يردان بهذه الصورة الاصطلاحية دائما»[2]. فمن خلال بعض النصوص النقدية عند النقاد العرب جدها معروفة لديهم مع اختلاف تعبيرهم عنها. فالجاحظ يركز على معنى معين لدى الأديب فيما يخص مقصده، ويتمثل في تعريفه للبيان في مقصد الفهم الإفهام، ذلك « إن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام. فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[3]. كما أن المقاصد في الشعر يراها البعض الآخر في الأغراض مثلما نجد ذلك عند ابن رشيق القيرواني الذي يشير إلى مقاصد الشعراء المختلفة باختلاف تجاربهم الشعرية، «فأول ما يحتاج إليه الشاعر -بعد الجد الذي هو الغاية، وفيه وحده الكفاية-حسن التأتي والسياسة وعلم مقاصد القول. فان نسب ذل وخضع، وإن مدح أطرى واسمع، وإن هجا اخل وأوجع، وإن فخر خب ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حن ولرجع، ولكن غايته معرفة أغراض

---

1 - إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة بيروت، ط5، 1986، ص 545.

2 - محمد أديوان، قضايا النقد الأدبي عند حازم القرطاجني، منشورات كلية الآداب ،الرباط، ص299.

3 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 99

المخاطب كائنا من كان، ليدخل إليه من بابه، ويداخله في ثيابه. فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس وبه تفاضلوا»[1].

بينما ينقسم الشعر عند حازم انطلاقا من هذه الحيثية إلى منهجين: الجد والهزل، ويبدو المفهومان واضحين إذا وقفنا عند الرؤية السطحية للأشياء، ولكنهما« مفهومان جليلان إذا نظر إليهما نظرة فلسفية، تتجاوز اللحاء إلى اللب، والظواهر والمظاهر إلى أسبابها العميقة. فالجد والهزل، في حقيقة الأمر، يختصران تجربة الحياة برمتها. فهما أساس ثنائية يتأرجح الإنسان بين طرفيها ولا يلبث عند طرف منهما إلا لكي يتحول إلى الطرف الآخر، ولو بعد حين. وتستمر دورة الحياة على هذه الوتيرة»[2] وإذا كانت تلك هي مفاهيم الاصطلاحين في الوجود،فان مفاهيمها في المجال الأدبي مختلفة فهي عند حازم مذهب في الكلام وضع له ضوابط لا ينحرف عنها الشاعر «أما ما يجب في طريقة الجد فالا ينحرف في ما كان من الكلام على الجد إلى طريقة الهزل كبير انحراف،أو لا ينحرف إلى ذلك بالجملة، لان الكلام المبني على الجد إنما قصد به إلقاؤه بمحل القبول من أهل الجد»[3] وهو مذهب يصدر عن مجموعة من الصفات «فأما طريقة الجدَ فهي مذهب في الكلام تصدر الأقاويل فيه عن مروءة وعقل بنزاع الهمة والهوى إلى ذلك، ... فيجب في معاني الطريقة الجدية أن تكون النفس فيها طامحة إلى ذكر ما لا يشين ذكره ولا يسقط من مروءة المتكلم، وأن تكون واقفة دون أدنى ما يحتشم من ذكره ذو المروءة أو يكبر نفسه عنه» [4]. نلاحظ أن المروءة والعقل هما أساس طريقة الجد في الكلام. وهي ذات الصفات التي يشترطها قدامة بن جعفر في غرض المدح الذي يعد من منازع الجد «انه لما كانت فضائل الناس، من حيث أنهم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان على ما عليه أهل الألباب، من الاتفاق في ذلك، إنما هي: العقل والشجاعة والعدل والعفة، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبا، والمادح بغيرها مخطئا»[5]

---

1 – ابن رشيق العمدة، دار الجيل بيروت، 1981، ص 199.

2 – محمد أديوان، المرجع السابق، ص 300.

3 – المنهاج، ص 328.

4– المنهاج، ص 329.

5 – قدامة بن جعفر، المصدر نفسه، ص 96.

المخاطب كائنا من كان، ليدخل إليه من بابه، ويداخله في ثيابه. فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس وبه تفاضلوا»[1].

بينما ينقسم الشعر عند حازم انطلاقا من هذه الحيثية إلى منهجين: الجد والهزل، ويبدو المفهومان واضحين إذا وقفنا عند الرؤية السطحية للأشياء، ولكنهما« مفهومان جليلان إذا نظر إليهما نظرة فلسفية، تتجاوز اللحاء إلى اللب، والظواهر والمظاهر إلى أسبابها العميقة. فالجد والهزل، في حقيقة الأمر، يختصران تجربة الحياة برمتها. فهما أساس ثنائية يتأرجح الإنسان بين طرفيها ولا يلبث عند طرف منهما إلا لكي يتحول إلى الطرف الآخر، ولو بعد حين. وتستمر دورة الحياة على هذه الوتيرة»[2] وإذا كانت تلك هي مفاهيم الاصطلاحين في الوجود،فان مفاهيمها في المجال الأدبي مختلفة فهي عند حازم مذهب في الكلام وضع له ضوابط لا ينحرف عنها الشاعر«أما ما يجب في طريقة الجد فالا ينحرف في ما كان من الكلام على الجد إلى طريقة الهزل كبير انحراف،أو لا ينحرف إلى ذلك بالجملة، لان الكلام المبني على الجد إنما قصد به إلقاؤه بمحل القبول من أهل الجد»[3] وهو مذهب يصدر عن مجموعة من الصفات «فأما طريقة الجدّ فهي مذهب في الكلام تصدر الأقاويل فيه عن مروءة وعقل بنزاع الهمة والهوى إلى ذلك، ... فيجب في معاني الطريقة الجدية أن تكون النفس فيها طامحة إلى ذكر ما لا يشين ذكره ولا يسقط من مروءة المتكلم، وأن تكون واقفة دون أدنى ما يحتشم من ذكره ذو المروءة أو يكبر نفسه عنه» [4]. نلاحظ أن المروءة والعقل هما أساس طريقة الجد في الكلام. وهي ذات الصفات التي يشترطها قدامة بن جعفر في غرض المدح الذي يعد من منازع الجد «انه لما كانت فضائل الناس، من حيث أنهم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان على ما عليه أهل الألباب، من الاتفاق في ذلك، إنما هي: العقل والشجاعة والعدل والعفة، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبا، والمادح بغيرها مخطئا»[5]

---

1 – ابن رشيق العمدة، دار الجيل بيروت،1981، ص 199.

2 – محمد أديوان، المرجع السابق، ص 300.

3 – المنهاج، ص 328.

4– المنهاج، ص 329.

5 – قدامة بن جعفر، المصدر نفسه، ص 96.

وأما« طريقة الهزل فإنها مذهب في الكلام تصدر الأقاويل فيه عن مجون وسخف بنزاع الهمة والهوى إلى ذلك»[1].

ويجب في الطريقة الأولى أن يُتجنب الهزل، أي« يتجنب فيها الساقط من الألفاظ والمولد، ويقتصر فيها على العربي المحض وعلى التصاريف الصريحة في الفصاحة المطردة في كلامهم. ولا يعرج من ذلك على ما لا يدخل في كلامهم إلا بوجوه تستضعف ويتسامح في إيراد الحوشي والغريب فيها في بعض المواضع»[2].

وأما الطريقة الهزلية، فقد تقتبس شيئا من الطريقة الجدية « فان ذا الجد قد يأتي من الهزل بما يخف في بعض المواضع -فان الكريم قد يطرب، وقد يحتاج إلى إطرابه، ولكل مقام مقال- لكنه يحتاج من بني كلامه على الجد، ثم أراد أن يلم بشيء من الهزل، أن يتلطف في التدرج من الجد إلى الهزل، وأن يشعر بان ما الم به من ذلك شيء لا حقيقة له، وإنما هو على جهة المزج والدعابة ليبسط بذلك من النفوس ويحرك»[3]. وأورد لنا القرطاجني مثالا عن ذلك لما حدث لابن الرومي حين اعتذر عن ما وقع له من هزل في موضع الجد وهو قصيدة المدح.

وأرى أن معشرا سيقولو	ن: سخيف من الرجال لعوب
أين عنه، وأين ما يدعيه	من علوم لحامليه قطـــوب
ولعمري إن الحكيم وقور	ولعمري إن الكريم طـــروب[4]

واستدل بما ذهب إليه سقراط حين قال: « حكاية الهزل لذيذة سخيف أهلها، وحكاية الجدّ مكروهة، وحكاية الممزوج منهما معتدل. ولا يقبل شاعر يحكي كل جنس، بل نطرده وندفع ملاحته وطيبه، ونقبل على شاعرنا الذي يسلك مسلك الجد فقط »[5]. وهذه دلالة على تأثره بالنظرة اليونانية في تفضيله لطريقة الجد على طريقة الهزل« إن إشارة سقراط هذه تعزز التصور اليوناني لمسألة الجد والهزل في الشعر. فالشاعر -حسب أفلاطون- عليه أن يلتزم بما يفيد، وما هو جدي، في مجال الشعر، حتى لا يلهي مواطني المدينة الفاضلة

1 - المنهاج، ص 327.

2 - المنهاج، ص 328و329.

3 - المنهاج، ص 330.

4 - قصيدة مدح بها القاسم بن عبيد الله، احد حكام بني العباس.

5 - المنهاج، ص 330.

عن أداء واجباتهم الضرورية في الحياة. فالهزل لا مكان له في المدينة الفاضلة، لذا على الشعراء أن يقصوا مظاهره المختلفة عن دائرة الشعر»[1]

III - أغراض الشعر

أشار حازم في مستهل حديثه عن تقسيم الأغراض الشعرية إلى أقوال النقاد السابقين حول هذه القضية، وأورد اختلافهم في ذلك.

« اختلف الناس في قسمة الشعر. فقسمه بعض من تكلم في ذلك إلى ستة أقسام: مدح وهجاءو نسيب ورثاء وصف وتشبيه. وقال بعضهم: الصحيح أن تكون أقسامه خمسة لان التشبيه راجع إلى معنى الوصف»[2]

يرى قدامة بن جعفر أن المعنى يجب أن يكون مواجها للغرض المقصود، « ولما كانت أقسام المعاني التي يحتاج فيها إلى أن تكون على هذه الصفة مما لا نهاية لعدده، ولم يمكن أن يؤتى على تحديد جميع ذلك ولا أن يبلغ آخره،... رأيت أن أجعل ذلك في الأعلام من أغراض الشعراء، وما هم عليه أكثر حوما، وعليه أشد روما، وهو: المديح، والهجاء، والنسيب، والمراثي، والوصف، والتشبيه»[3].

وقال بعضهم: "أركان الشعر أربعة: الرغبة والرهبة والطرب والغضب". وقال بعضهم: الشعر كله في الحقيقة راجع إلى معنى الرغبة والرهبة.

وقال الرماني علي بن عيسى: "أكثر ما تجري عليه أغراض الشعر خمسة: النسيب، والمديح، والهجاء، والفخر، والوصف، ويدخل التشبيه والاستعارة في باب الوصف" و"قال قوم: الشعر كله نوعان: مدح وهجاء، فإلى المدح يرجع الرثاء، والافتخار، والنسيب، وما تعلق بذلك من محمود الوصف. والهجاء ضد ذلك كله.

وهذا قول يجعل الشعر "نوعين" رئيسيين تتفرع عنهما باقي "الأنواع"، وبذلك يصبح المدح، والهجاء نوعين يشملان كل التفريعات الأخرى، ويقوم هذا التصنيف على المقابلة، "فالأنواع" الشعرية المندرجة في باب المدح هي نقيض ما يضمه باب الهجاء، غير أن صاحب هذا التقسيم يجعل "للنوعين" الشعريين نقطة تقاطع تتمثل في بعض الأغراض مثل "العتاب"، و"الإغراء".

---

1 – محمد أديوان، المرجع نفسه، ص 308.

2 –المنهاج، ص 336.

3 – قدامة بن جعفر، المصدر السابق، ص 91.

إلا أن حازم القرطاجني يرى أن التقسيمات الشعرية كلها غير صحيحة، لكون كل تقسيم منها لا يخلو من أن يكون فيه نقص أو تداخل، ومن ثم يسعى إلى إيجاد تقسيمة تراعى فيها نتائج الأثر الحاصل للقصيدة، والتي تهدف إلى بسط النفوس أو إلى قبضها، «فإن حصول ما من شأنه أن يطلب يسمى ظفرا. وفوته في مظنة الحصول يسمى إخفاقا، وكان حصول ما من شأنه أن يهرب عنه يسمى أذاة أو رزءا، وكفايته في مظنة الحصول تسمى نجاة، سمي القول في الظفر والنجاة تهنئة، وسمي القول بالإخفاق إن قصد تسلية النفوس عنه تأسيا، وإن قصد تحسرها تأسفا، وسمي القول في الرزء أن قصد استدعاء الجلد على ذلك تعزية، وإن قصد استدعاء الجزع من ذلك سمي تفجيعا. فإن كان المظفور به على يدي قاصد للنفع جوزي على ذلك بالذكر الجميل وسمي ذلك مديحا، وإن كان الضار على يدي قاصد، لذلك فأدى ذلك إلى ذكر قبيح سمي ذلك هجاء وإن كان الرزء بفقد شيء فندب ذلك الشيء سمي ذلك رثاء»[1]. من هذا القول يظهر لنا أن قسمة حازم لأغراض الشعر تقوم على منطلقات نفسية، يركز فيها على فعالية التأثير في المتلقي.

ويخلص إلى أن «أمهات الطرق الشعرية أربع، وهي التهاني وما معها، والتعازي وما معها، والمدائح وما معها، والأهاجي وما معها، وأن كل ذلك راجع إلى ما الباعث عليه الارتياح، وإلى ما الباعث عليه الاكتراث، وإلى ما الباعث عليه الارتياح والاكتراث معا»[2].

ولحازم في تقسيم أغراض الشعر مكانة خاصة بين سائر النقاد وفضل سبق إلى ناحية من هذه القضية. فبتتبع كل المحاولات لتقسيم الشعر قبله نلاحظ أنها تنصب كلها على جانب الشعر والصورة النهائية للشعر، ولم تتعرض للبواعث إلى الأقوال الشعرية. والذي دفعه إلى ذلك هو فكرته عن التخييل، فمعاني الشعر عنده "ترجع إلى وصف أحوال الأمور المحركة إلى القول، أو إلى وصف أحوال المتحركين لها، أو إلى وصف أحوال المحركات والمحركين معا. وأحسن القول وأكمله ما اجتمع فيه وصف لحالين".

ومضى في هذا الاتجاه وبين أغراض الشعر من ناحية البواعث على قولها؛ فعلى سبيل المثال، "الارتياح للأمر السار إذا كان صادرا عن قاصد لذلك أرضى فحرك إلى المدح..."

1 - المنهاج. ص337.

2 - المنهاج. ص 341.

وقد بني حازم نظريته في تقسيم الأغراض على أساس النظر إلى البواعث، فلذلك لم يرتض تقسيمات المتقدمين، كما سبق بيان ذلك. وجاء منهجه هذا متسما بالدقة المتناهية، التي نتجت عن سعة ثقافته وعمق اطلاعه، وبفضل هذه الثقافة نراه يخطو خطوة بعيدة أمام من سبقه من النقاد في ربط الأغراض بالانفعالات النفسية التي تبعث على قول الشعر، ومن ثم تقسيم الشعر بالنظر إلى تلك البواعث.

ولم يتوقف حازم عند تقسيم الشعر إلى أغراض وفق نظريته القائمة على البواعث والتأثير بل بحث علاقة تلاؤمها مع الأوزان.

ويؤكد حازم أن كل غرض من أغراض الشعر يوجب نوعا معيّنا من الأوزان. فإذا قصد الشاعر الفخر استدعى ذلك الأوزان الفخمة الباهية الرصينة؛ وإذا كان قصده هزليا أو استخفافيا أو نحو ذلك جاء بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء. «ولما كانت أغراض الشعر شتى وكان منها ما يقصد به الجد والرصانة وما يقصد به الهزل والرشاقة، ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم وما يقصد به الصغار والتحقير، وجب أن تحاكى تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويخيلها للنفوس. فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة، وإذا قصد في موضع قصدا هزليا أو استخفافيا وقصد تحقير شيء أو العبث به حاكى ذلك بما يناسبهم من الاوزان الطائشة القليلة البهاء، وكذلك في كل مقصد.و كانت شعراء اليونانيين تلتزم لكل غرض وزنا يليق به ولا تتعداه فيه إلى غيره»[1].

ويبدو تأثره بالثقافة اليونانية في هذا المجال واضحا. فهو يصرّح بأن أصل هذه النظرية مستوحى من كلام ابن سينا، حيث قال: «وهذا الذي ذكرته من تخييل الأغراض بالأوزان قد نبه عليه ابن سينا في غير موضع من كتبه، ومن ذلك قوله في الشفاء، في تعديد الأمور التي تجعل القول مخيلا: والأمور التي تجعل القول مخيلا: منها أمور تتعلق بزمان القول وعدد زمانه وهو الوزن، ومنها أمور تتعلق بالمسموع من القول، ومنها أمور تتعلق بالمفهوم من القول، ومنها أمور تتردد بين المسموع والمفهوم»[2].

---

1 -المنهاج ص 266

2 - المصدر نفسه ،ص266.

IV – المفاضلة بين الشعراء

إن مبدأ المفاضلة، هو مبدأ قديم في النقد الأدبي، إن لم نقل انه المبدأ الأول الذي قام عليه. فمنذ أن بدا النقاد القدماء ينظرون في الشعر القديم، كان عملهم يقوم على البحث عن الخصائص والمميزات التي يتفرد بها كل شاعر عن غيره سواء في ألفاظه أو معانيه أو صوره، وبها تقاس جودة الشاعر وفحولته. ولعل أول هذه البدايات تعود إلى تلك الملاحظات الأولى التي كان يصدرها الشعراء على بعض أشعارهم. قبل أن يصبح مبدأ المفاضلة مبدءا نقديا له منهجه ومقاييسه. ويعد ابن سلام الجمحي أول من وضع منهجا علميا يقوم على أسس فنية اصطنعها لنفسه أقام عليها تقسيمه لطبقات شعرائه، ومن مقاييسه كثرة شعر الشاعر وتعدد أغراضه وجودته. وتبعه بعد ذلك في أسلوب المفاضلة كل من ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء، والجاحظ في كتابه الحيوان. وانتقلت مع هؤلاء المفاضلة بين الشعراء إلى اتجاه جديد دخل النقد العربي لأول مرة تمثل في ظهور الاتجاه الجديد في مقابل الاتجاه القديم في الشعر ونتج عن هذه المقابلة بين الاتجاهين منهج نقدي كامل يسمى بالموازنة، واشهر من جسد هذا المنهج هو الآمدي في دراسته حول الطائيين(أبو تمام والبحتري). وكان التعصب لأحد الفريقين هو الحكم في كثير من الأحيان في مبدأ المفاضلة بين الشعراء. وها هو اللغوي المشهور عمرو بن أبي العلاء يتخذ موقفا مسبقا من المحدث، لا يستشهد به ولا يرويه رغم اعترافه له بالجودة «لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته»[1].

ويعد حازم القرطاجني أقرب النقاد العرب« إلى الواقع من أي ناقد آخر في فهمه لمبدأ المفاضلة، يدرك الحقائق»[2]. فهو قد استطاع أن يحقق ما عجز عنه من سبقه من النقاد، وأن يضع ضوابط واقعية لهذه العملية. فالمفاضلة عنده أمر تقريبي لا قطعي، حيث إن الوصول في المفاضلة إلى درجة الجزم أمر غير ممكن، فالترجيح في ذلك على سبيل التقريب،« إن المفاضلة بين الشعراء الذين أحاطوا بقوانين الصناعة وعرفوا مذاهبها لا يمكن تحقيقها، ولكن إنما يفاضل بينهم على سبيل التقريب وترجيح الظنون»[3]. ويرجع سبب ذلك إلى مجموعة من الأمور .

---

1 – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح: احمد شاكر، دار المعارف، دت، ص 63.

2 – إحسان عباس، المرجع السابق، ص 567.

3 – المنهاج، ص 374.

❖أن الشعر يختلف باختلاف أنماطه وطرقه ويختلف بحسب اختلاف الأزمان، فشاعر يحسن في النمط الذي يقصد فيه الجزالة والمتانة من الشعر، ولا يحسن طريقة الرقة واللطافة؛ وآخر يحسن في النسيب دون غيره من الأغراض،« نجد بعض الشعراء يحسن في طريقة من الشعر كالنسيب مثلا ولا يحسن في طريقة أخرى كالهجاء مثلا،و آخر يكون أمره بالضد من هذا»[1].

❖أن الشعر يختلف بحسب اختلاف الأزمان وما فيها من الأمور يولع الناس بالتعلق بها في أشعارهم، فهناك زمن تشيع فيه وصف القيان والخمر وما ناسب ذلك ويجيدون فيه، «لان الشعر أيضا يختلف بحسب اختلاف الأزمان وما يوجد فيها وما يولع به الناس مما له علقة بشؤونهم،فيصفونه لذلك ويكثرون رياضة خواطرهم فيه»[2].

❖أن الشعر يختلف بحسب الأمكنة وما يوجد فيها مما شأنه أن يوصف؛ فبعض الشعراء يحسن في وصف الوحش (البادية) بينما يحسن البعض الآخر وصف الروض أو الخمر (الحاضرة)، «ولان الشعر أيضا يختلف بحسب اختلاف الأمكنة وما يوجد فيها مما شأنه أن يوصف من الأشياء المصنوعة أو المخلوقة، نجد بعض الشعراء يحسن في وصف الروض، وبعضهم يحسن في وصف الخمر»[3].

❖أن الشعر يختلف بحسب اختلاف أحوال القائلين وأحوال ما يتعرضون للقول فيه، فواحد يحسن الفخر، والآخر يحسن المدح...

❖أن الشعر يختلف بحسب اختلاف الأشياء فيما يليق بها من الأوصاف والمعاني، كما يختلف بحسب ما يختص به كل أمة من اللغة المتعارف عندها...

وإذا أخذت هذه الأمور بعين الاعتبار، «فواجب أن يضاف الثناء على الشاعر إذا أحسن في وصف ما ليس معتاداً لديه ولا مألوفاً في مكانه ولا هو من طريقه ولا مما احتنك فيه ولا مما ألجأته إليه ضرورة، وكان مع ذلك متكلما باللغات التي يستعملها في كلامه. وبالجملة إذا أخذ في مأخذ ليس مما ألفه ولا اعتاده فإن الشاعر إذا أخذ في مأخذ ليس مما ألفه ولا اعتاده فساوى في الإحسان فيه من قد ألفه واعتاده، كان قد أربى عليه في الفضل

1 – المنهاج، ص 374.

2 – المنهاج، ص 374.

3 – المنهاج، ص 375.

إرباء كثيرا، وإن كان شعرهما متساويا».[1] بمعنى أنه إذا اجتمع الشاعران في غرض ووزن وقافية، يحكم بالتفضيل للذي قال في الغرض الذي لم يألفه على الذي قال في الغرض الذي ألفه وإن تساويا في الجودة.

كما يعترف القرطاجني بما في المفاضلة بين الشعراء من إشكال، بحيث يستعصى على الناقد أو العالم بالقطع في الحكم لأحد الشعراء إذا تعلق الأمر بجودة الطبع وفضل القريحة، إلى درجة انه يورد لنا مثالا عن أفصح الأمة واعلمها –علي بن أبي طالب– الذي لم يقض في المفاضلة قضاء جزما.فيروي لنا قصته حين اختصم الناس في اشعر الناس.

« قال علي لأبي الأسود الدؤلي: قل يا أبا الأسود.

فقال أبو الأسود، وكان يتعصب لأبي دؤاد: أشعرهم الذي يقول

ولقد أغتدي يدافع ركنـــي	أحوذي ذو ميعـــة إضريج
مخلط مزيل مكـــــــر مفر	منفح مطرح سبوح خروج
سلهب شرجب كأن رماحا	حملته،و في السراة دموج

فاقبل علي –عليه السلام– فقال: كل شعرائكم محسن، ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول لعلمنا أيهم أسبق إلى ذلك. وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن، فان يكن احد فضلهم فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة امرؤ القيس، فانه كان أصحهم بادرة وأجودهم نادرة»[2]

وردَّ حازم على الذين يفضلون المتقدمين على المتأخرين بمجرد تقدم زمانهم، ويخرج أمثال هؤلاء من دائرة الصناعة النقدية جملة.و شبيه بهذا الرأي ما قاله ابن قتيبة «إني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله»[3]. وقال القرطاجني إنه يقيم المفاضلة بين الشعراء إذا كانت البواعث والمهيئات عند بعضهم أكبر منها عند بعض آخر. وختم حديثه عن المفاضلة بوضع المعيار النهائي لها: «فأما المفاضلة بين جماهير شعراء توفّرت لهم الأسباب المهيأة لقول الشعر والأسباب الباعثة على ذلك، وقد أومأت إليها في صدر الكتاب، وبين جماهير شعراء لم تتوفّر لهم الأسباب المهيأة ولا

---

1 – المنهاج، ص 376.

2 – المنهاج، ص 377.

3 – ابن قتيبة، المصدر السابق، ص 63.

البواعث، فلا يجب أن نتوقف فيها بل نحكم حكما جزما أن الذين توفرت لهم الأسباب المهيأة والباعثة أشعر من الذين لم تتوفر لهم. وذلك كما نفضل شعراء العراق على شعراء مصر. ولا نتوقف في ذلك، إذ لا مناسبة بين الفريقين في الإحسان في ذلك، كما لا تناسب بينهم في توفر الأسباب، وإن كان أكثر تلك الأسباب أيضا في الصقع العراقي قد تغير عما كان عليه في الزمان المتقدم.» (1)

وخاتمة القول إن ما يميز عمل حازم القرطاجني عن غيره من العلماء والنقاد أنه لم يبحث المفاهيم النقدية على الطريقة القديمة في تعريف العملية الشعرية من خلال الأجزاء المكونة لها،بل عرفها استنادا إلى أسس منطقية فلسفية، وعلى ذوقه النابع عن نفس شاعرة.

1 - المنهاج، ص 379.